دريفوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

امّا الواقعة الثانية، فهي واقعة الفرد دريفوس، التي وصفت بأنها تركت أثراً عميقاً في هرتسل، الى درجة انه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبنّى، بدلاً من ذلك، الحل الصهيوني. وهذه، في حدّ ذاتها، عملية تبسيط فجّة للعوامل التي أدّت بهرتسل الى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التي لا توردها المراجع الصهيونية ان هرتسل نفسه كان مقتنعاً، في بادىء الامر، بأن دريفوس كان مذنباً وخائناً؛ ولا أعرف ما الذي جعله يغيّر رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع المقالة؛ ولذلك، فلنحاول ان نضع واقعة دريفوس في اطارها التاريخي، والاجتماعي، والانساني.

ابتداء، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية، لأسباب وجيهة. فالقوات الفرنسية كانت تجنّد كثيراً من يهود المانيا ويهود الالزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لا بدّ وان ألمانيا ذاتها كانت تفعل الشيء نفسه (وهو أمر متوقّع). ويجب ان نتذكّر ان هذا جزء من الادراك الاوروبي لليهود؛ وهو ادراك كان يدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففي القرن السابع عشر، لعب أفراد الجماعات اليهودية في اوروبا دوراً أساسياً في عملية التجسّس بين الدول؛ وقد حاول اوليفر كروميل ان يخطب ودّ اليهود ويوطّنهم في انكلترا، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ ان تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في اوروبا، الأمر الذي ادّى الى انتقال اعداد كبيرة من المهاجرين الى فرنسا؛ فجاء مهاجرون من ايطاليا وغيرها من البلدان الاوروبية، فكان عدد العمال الايطاليين ١١٢ ألفاً في العام ١٨٧٢، ازداد الى ٣٠٠ ألف في العام ١٨٩٠. وقد جاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والاوفيرنا Auvergnat. كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الالزاس واللورين، الذين لم يكونوا قد اصطبغوا، بعد، بالصبغة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة المانية). وقد أدّى كل هذا الى زيادة عدد الأجانب. كما ان تزايد يهود شرق اوروبا ويهود الالزاس واللورين على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي أدّى الى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على انهم أجانب. ومن المعروف انه، في فترات الكساد الاقتصادي، تتعرّض العناصر الاجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة؛ اذ ان العامل الاجنبي يرضى بأجر أقلّ ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً. علاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتّراً، خاصة بالنسبة الى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان في العام ١٨٧٠؛ اذ كانت العناصر الليبرالية (التي كانت تضمّ نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما ان المدّ العلماني كان آخذاً في التزايد، وفي الاصرار على فصل الدين عن الدولة. ويجب ان نتذكّر ان الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدّت الى افقارهم، وقذفت بهم الى المدن الكبرى، مثل باريس. وكان المقتلعون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية، والذي كان اليهود يتواجدون في مركزه. اضافة الى ذلك، كان هناك عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس في العام ١٨٧١. وقد أدّى هذا كله الى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية في المجتمع. وعلى الرغم من هذا، ارتبط اليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة، وبالمصارف، وبالشبكات المالية والتجارية، وهي صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال.